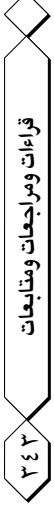




السنة الرابعة - العدد الحادي عشر



قراءات ومراجعات ومتابعات

٣٤٣

الكتاب: الجماعات الوظيفية اليهودية

نموذج تفسيري جديد

المؤلف: عبد الوهاب المسيري

الناشر: دار الشروق - القاهرة

الطبعة الأولى - ٢٠٠٢م

يدرس الدكتور عبد الوهاب المسيري المختص في الشؤون اليهودية والصهيونية الظاهرة اليهودية من زاوية الدور الذي يمكن أن تؤديه، أو أدته هذه الجماعات عبر التاريخ وبخاصة الدور الذي لعبه اليهود في الحضارة الغربية. ويقصد المؤلف من عنوانه التوصيفي، البحث عن اليهود كجماعات كانت تُستجلب من خارج المجتمع لتؤدي فيه دوراً عندما كانت تحرم التشريعات أو الأعراف الاجتماعية السائدة القيام ببعض الأدوار والمهن كممارسة الربا والبغاء.

ويبحث المسيري في كتابه هذا عن دور اليهود في المجتمع الغربي وارتباط ذلك الدور بنشأة الرأسمالية الحديث ويحاول تقديم رؤية جديدة عبر دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي لاستعراض الأدوار والمهام التي كانت تناط باليهودي في المجتمع الغربي، في محاولة لاستجلاء مكان الربط بين تلك الأدوار بين ما تقوم به إسرائيل حالياً، يثبت أن جوهر هذا الدور واحد رغم اختلاف الظاهر من جماعة تعيش في مجتمع آخر إلى دولة تحاول أن تؤسس لتمييز ما عن محيطها.

التاريخ اليهودي والموقع الاجتماعي

هناك سؤال يطرح في أذهان الكثيرين، ألا وهو كيف تحول اليهود إلى جماعة وظيفية حسب تعبير المسيري؟ وتزداد حدة هذا السؤال إذا لاحظنا وكما يستعرض المسيري

نفسه، أن العبرانيين كانوا رعاةً رحلاً ثم بعد الاستقرار في عصر الملكية انقسموا إلى الطبقة الحاكمة وهي التي تتألف من الملك وحواشيه، والنخب العسكرية، وطبقات أخرى تتراتب في السلم الاجتماعي بحسب درجاتها. وبعد السبي البابلي بدأوا يعملون بالزراعة والصرافة، وتحول بعضهم إلى مرتزقة جندتهم الإمبراطوريات الصاعدة في الشرق آنذاك. وأدت فكرة الوطن الأصلي إلى إضعاف علاقة اليهودي بالأرض التي يعيش عليها مما دعاه إلى عدم الرغبة في الاستقرار، وبالتالي ترك الزراعة التي تحتاج إلى ملكية الأراضي الزراعية وإلى استقرار، وحالت دون ملكيتهم بعض القوانين التي صدرت في العصور الوسطى، مضافاً إلى عظمة السبب والأحد التي جعلت من عمل اليهودي في الزراعة أمراً غير مربح إن لم نقل مستحيلاً. وهنا بداية الإجابة عن التساؤل الذي يطرحه الدكتور المسيري ليضيء جانباً من هذا التاريخ المغرق في القدم.

اليهود وعلاقتهم بالمجتمع الغربي:

غلبت النفعية على علاقة اليهود بالمجتمع الغربي حيث كانوا يُستجلبون لأداء مهمات محددة وتفرض عليهم الإقامة في غيتو منعزل، ويلزمون باللبسة تميزهم عن الآخرين وأما المهمة الأساس التي كات تطلب من اليهودي هي خدمة الحاكم في قمع الجماهير ما أدى إلى انعزالهم عن المجتمعات التي كانوا يعيشون فيها، بل كانوا يستحضرون لقمعها. كما يرى المسيري الذي يعتقد أن الدياسبورا نتيجة اشتغالهم بهذا الدور الوظيفي، وليس نتيجة دمار الهيكل عام ٧٠ كما يدعي الصهاينة ولم يكن التهجير البابلي والآشوري مجرد تأديبهم، بل لاستخدامهم كجماعة

جعل أكثر مواطني غرب أوروبا مدينيين لليهود، إلى حد صارت كلمة يهودي ومرابي أشبه بالمترادين.

وأدى هذا الأمر إلى تحسن الوضع الاقتصادي لليهود ولكن في الوقت عينه جعلهم ممقوتين من قبل دافعي الضرائب وأصحاب الديون.

الدور الوظيفي للدولة اليهودية:

يعد الكيان الصهيوني من أخطر تجليات الدور الوظيفي الذي اعتاد اليهود على القيام به؛ حيث إنها تعد الآن خطأً أمامياً ممتازاً للضغط على دول المنطقة سياسياً وعسكرياً، مضافاً إلى الضغط الذي يولّده وجود دولة معادية فيولد حاجة إلى شراء السلاح الذي يمثل واحداً من أهم السلع التي تورّد إلى المنطقة ولا حاجة للبحث عن أثر ذلك على الاقتصاديات الغربية.

وقد وعى اليهود أهمية دورهم وحاجة الدول الغربية، وبخاصة أمريكا لهذا الدور ومن هنا يصرح وزير التخطيط الإسرائيلي يعقوب ميريدور، فيقول: «إن بديل إقامة دولة إسرائيل للولايات المتحدة هو عشر حاملات طائرات يكلف بناؤها خمسين بليون دولار مضافاً إلى الحرج الذي يترتب على وجودها في المنطقة وتكلفة تشغيلها».

وجهة نظر:

هذا ولكن يبدو أن هذا الدور بدأ يفقد حيويته أو كفايته تبعاً لضغوط شعوب المنطقة وعدم رضوخهم للسياسات الأميركية. ومن هنا نلاحظ أن أمريكا بدأت تفتش عن حاملات طائرات جديدة في المنطقة ترفد دولة إسرائيل. وعلى أي حال، فإن الكتاب من الكتب المهمة التي عالجت موضوعاً بحث في سياقات مختلفة لكن بحثه في سياق واحد منسجم من النقاط الإيجابية في تقييم هذا الكتاب.

وظيفية تقوم بأعمال الزراعة وغيرها من الأعمال.

الجماعات التي خدمها اليهود:

تقلّب مستخدمو اليهود عبر التاريخ وتبدّلوا بحسب انقلاب دفة السيطرة على المناطق التي أقاموا فيها ومن تلك النماذج:

١- عمل اليهود مع الفرس كمرتزقة وقد بدلت حامية إلفنتاين القائمة على اليهود ديموغرافياً، ولأءها من السلطة المصرية إلى الفرس.

٢- بعد فتح الاسكندر المقدوني الشرق استفاد من اليهود وأبقى لهم كل الامتيازات التي كان الفرس قد منحوهم إياها، فانضموا بأعداد كبيرة إلى الجيش اليوناني وقد سلمهم بطليموس السادس (١٨٠-١٤٥ ق.م.) مملكته إلى أن وصلوا إلى أعلى المراتب القيادية والعسكرية.

٣- وليس بعيداً في بطون التاريخ استفاد العثمانيون من اليهود فوطنوهم قبرص والمجر لتعديل التوزيع الديموغرافي لمصلحتهم حيث كانت الغلبة في هذين البلدين للمسيحيين فأرادوا أن يخلقوا فيهما جماعات موالية لهم.

٤- ومن أهم التجارب الاستيطانية في العصر الحديث هو ما تم على أساس التعاون بين الإقطاع البولندي واليهود في أوكرانيا.

العمل البنكي الربوي:

عمل اليهود في أوروبا بالإقراض الربوي الذي تحرّمه الكنيسة وتحرّمه الديانة اليهودية أيضاً، ولكن بين اليهود أنفسهم فقط. وأما أخذ الربا من غير اليهودي، فهو جائز ومقبول في الشريعة اليهودية. وساعدت الظروف الاقتصادية إبان الحروب الصليبية وبعدها في أثناء النهضة الصناعية على سهولة عمل المرابين ورواجه تبعاً للحاجة إلى السيولة ما